

## ثالثاً: تسلسل الأدوار التاريخية وتحديد أزمانها.

إن التنقيبات التي تتبعنا نشوءها وتطورها منذ بدايتها في منتصف القرن الماضي إلى حال التاريخ قد وضعت في أيدي الباحثين والمؤرخين المادة الأولية والمصادر الأصلية لمعرفة حضارة وادي الرافدين بجميع أوجهها ومقوماتها منذ أبعد عصور ما قبل التاريخ إلى آخر عهودها التاريخية. ولكن كثيراً ما يتساءل الناس: ترى كيف استطاع الباحثون أن يضبطوا أدوار هذه الحضارة، من ناحية تسلسل هذه الأدوار وتحديد أزمانها بالنسبة إلى عهد ثابت منخذ في تأريخ الحوادث مثل العهد الميلادي؟ إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تكون ما يصح أن نطلق عليه «التقويم» أي ضبط تسلسل الأدوار التاريخية وتحديد أزمانها (Chronology). وسنحاول إيجاز هذا الموضوع بوجه ميسر سهل فهمه بالنسبة لغير المختصين، وهو مقدمة ضرورية لفهم ما ستكلم عنه من أدوار حضارة وادي الرافدين في الفصول الآتية.

### 1 - التسلسل النسبي للطبقات الأثرية. كيف تنشأ الأطلال الأثرية:

المواقع الأثرية أو الأطلال الأثرية كانت في أصلها قرى أو مدن قديمة. فالمعروف أن الناس كانوا وما زالوا يعيشون في البقعة الواحدة عدة أجيال متعاقبة. وسواء كانت دور سكناهم مبنية من الطين أم من «اللبن» أم من الآجر فإنها لا بدّ وأن تتداعى بمرور الأزمان. وبعد استنفاد ترميمها عدة مرات تشيد بيوت جديدة فوق بقايا جدران البيوت القديمة بعد تسويتها للإفادة منها كأسس للبيوت الجديدة. وهكذا ترتفع أماكن السكنى بمرور الأزمان وتكون تلاً أو مرتفعاً اصطناعياً يمثل أدواراً كثيرة من السكنى المتعاقبة. وبالإضافة إلى الألوف الكثيرة من التلوث الأثرية المنبثة في جميع أرجاء العراق، فإن خير ما يشاهده المرء الآن قلعة كركوك القديمة التي هي في واقع الأمر تل اصطناعي تكوّن من تراكم طبقات السكنى المتعاقبة لعله منذ منتصف الألف الثالث ق.م إلى الزمن الحاضر، حيث دور السكنى الحديثة فوق قمة التل وتحتها أسس جدران لبيوت من العهد العثماني وتحت هذه أنقاض سكنى من أدوار أقدم،

وهكذا إلى قعر التل حيث بقايا أول استيطان في الموضع وهي تقوم فوق ما يسمى في علم الآثار بالأرض البكر (Virgin Soil)، والمثال الثاني رابية قلعة أربيل التي نشأت أيضاً من تراكم أدوار متعاقبة من السكنى. إن مثل هذه التلوث بمثابة سفر متكامل تبدأ فصوله الأولى منذ أول دور من أدوار الاستيطان فيه إلى الفصل الأخير فوق سطح التل بعد أن يهجر الموضع.

وهناك عوامل كثيرة لترك مواضع السكنى القديمة والانتقال إلى أماكن جديدة، وهي تختلف باختلاف المواضع. فمن بين هذه العوامل أن مواضع السكنى إذا ارتفع ارتفاعاً كبيراً بسبب تراكم بقايا السكنى بعضها فوق بعض تركه السكان وسكنوا في موضع جديد. ومنها انقطاع موارد المياه مثل جفاف الآبار والعيون وأهم من ذلك تغيير مجاري الأنهار التي شيدت فوق ضفافها تلك المستوطنات. وقد سبق أن نوّهنا بهذه الظاهرة في كلامنا على جغرافية العراق، ومثلنا على ذلك بالتلوث الكثيرة التي كانت تقع يوماً ما على مجاري الأنهار القديمة. ونذكر أيضاً انتقال الطرق التجارية التي كان مرورها من بعض المواضع السبب في نشوء بعض المستوطنات، ومنها تدهور الأراضي الزراعية وحاصلاتها من جراء انتشار الملوحة في التربة أو شح المياه والآفات الطبيعية الأخرى مثل التدمير والحريق الناجمين عن الحروب.

## 2 - معنى الطبقة الأثرية والدور الحضاري:

كثيراً ما نكرر ورود مصطلح «الطبقة الأثرية» و«الدور الحضاري»، وسنستعملهما مراراً في كلامنا على أدوار حضارة وادي الرافدين ولا سيما في الفصل المخصص لعصور ما قبل التاريخ. ولأن فهم هذين المصطلحين جزء من الموضوع الذي بين أيدينا، أي ضبط تسلسل الأدوار التاريخية، فينبغي شرح مفهومهما في عرف المنقبين والباحثين. يمكن تعريف الطبقة الأثرية (Level) أو (Stratum) بأنها دور بنائي أو دور سكني (Building Level) سواء كان البناء من جدران وتباليط (Pavement) تابعة لها، أم من أرضيات ترابية أو طينية مدكوكة مما يبقى من سكنى الإنسان في الخيام أو الأكواخ أو الملاجئ الجبلية

أو الكهوف، ولا سيما في عصور ما قبل التاريخ البعيدة. وإلى ذلك يوجد ما يصطلح عليه بالطبقة الأثرية الثانوية، وهي دور بنائي بنشأ من التغييرات أو التجديدات في البناء مثل إزالة بعض جدرانه وتجديد البعض الآخر منها أو تجديد تخطيطه أو إضافة بعض الأجزاء والمرافق الجديدة. أما الدور الحضاري (Cultural Period) فإنه حقبة زمنية قد تدوم بضعة قرون وتتألف في الموضع الأثري من عدة طبقات أثرية، وتتميز بآثارها الخاصة وطرزها المعمارية المميزة وأوانيتها الفخارية، أي إنها تمثل جملة خصائص حضارية في تاريخ القطر المبحوث في حضارته، وتتضمن تبدلات ثقافية مثل الاختراعات الجديدة. وقد يكون الدور الحضاري مصحوباً بتغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وسيمر بنا في كلامنا على عصور ما قبل التاريخ في العراق كيف يمثل الدور الحضاري في المدن القديمة بعدة أدوار بنائية. فمثلاً كشف في الوركاء عن ثمانية عشر دوراً بنائياً تتوزع على أربعة أدوار أو عصور حضارية رئيسية منذ أقدم عهود الاستيطان في دور العبيد ثم دور الوركاء وجمدة نصر وعصر فجر السلاطات. والباحثون الآن في وضع يستطيعون معرفة الدور الحضاري بمجرد فحص آثار قليلة منه، وأكثر من هذا يستطيع الفاحص للملتقطات السطحية فوق التلوي الأثرية ولا سيما كسر الفخار أن يعين أبرز أدوار الموضع الأثري قبل التنقيب فيه.

### 3 - تسلسل الطبقات الأثرية وتحديد أزمانها بوجه تقريبي:

من البديهي أن تكون الطبقة الأثرية السفلى وما يعثر عليه فيها من آثار وأبنية أقدم زمناً من الطبقة التي تليها إلى الأعلى. وقد سبق أن شبهنا التلوي الأثرية المؤلفة من عدة طبقات بنائية متسلسلة في أزمانها بأنها مثل الكتاب المنضد الصفحات. وقبل أن نعدد أشهر الطرق التي يستعان بها في تحديد أزمان هذه الطبقات والدور الحضاري المؤلف منها ننوه بأن الباحث الأثري يستطيع أن يخمن عدد السنين التي تستغرقها هذه الطبقات بوجه تقريبي، إذ يتعدى وضع قواعد ثابتة لأن الفترات الزمنية التي تدوم فيها الطبقات الأثرية تختلف باختلاف الأقطار وباختلاف مادة البناء وجودة البناء. فالبناء المشيد

والجدران الأجر بدورها تدوم زمناً أطول من عمر بناء اللبن (الأجر غير المفخور أو غير المشوي)، وبناء اللبن يعمر أكثر من بناء الطين، كما في أكواخ الطين من عصور ما قبل التاريخ. وتؤثر عوامل المناخ من رطوبة وجفاف في عمر الطبقة البنائية المشيدة باللبن. وجرى العرف الأثري على تخصيص زمن جيل واحد (أي في حدود 20 - 30 سنة) لعمر بناء اللبن والطين، أما أبنية الحجارة والأجر فتعمر أزماناً أطول قد تصل في بعض الحالات إلى قرن من الزمان وبضمن ذلك أدوار التجديد الثانوية.

وفي حالة عصور ما قبل التاريخ، ولا سيما تلك التي لم يعرف فيها الإنسان بناء البيوت بل كان يعيش كما قلنا في المغاور والكهوف والأكواخ، تكون أعمار الطبقات الأثرية فيها مقتصرة على تقدير ثخن الانقراض التي تتجمع وتتراكم من سكنى الإنسان في مثل تلك المواضع، ويختلف تقدير أعمار هذه الطبقات من قطر إلى آخر. ففي التحريات الأثرية التي أجريت في الهند والباكستان مثلاً قدر عمر طبقة ثخنها خمسة أقدام بأنه استغرق من عام 50 ق.م إلى 200 ميلادي، أي زهاء (250) عاماً، وفي موضع آخر قدر عمر طبقة أثرية ثخنها (6-9) أقدام بحوالي القرنين من الزمان.

ونختار من الأمثلة على تقدير أزمان الطبقات الأثرية الطريقة الطريفة التي قدرت بها أدوار معبد الإله «سين» في الموضع المسمى «خفاجي»<sup>(1)</sup> (منطقة ديالى)، فقد سجلت لهذا المعبد عشرة أدوار بنائية أساسية تبدأ من دور «جمدة نصر» في حدود 3100 أو 3000 ق.م وتنتهي قبيل العصر الآكدي في حدود 2400 ق.م. وقدر عمر المعبد السابع بأسلوب بارع في حساب مقدار ارتفاع الانقراض وربطها بعدد «التماليط» (Plastering) التي ملطت بها جدران ذلك المعبد وقدرها (16) مرة أي (16) قشرة أو طبقة من الملاط. وعلى فرض أن